الفصل التاسع

فصل في الرد على من يجوّز التوجه بالدعاء لغير الله عز وجل

أدرت في قناة المستقلة عدة ندوات حوارية في نهاية أبريل ٢٠٠٩ عن موقف المدارس الإسلامية من دعاء غير الله عز وجل. وفي إحدى هذه الندوات اتصل مشاهد من الجزائر وقال إن كبار السن في بلاده إذا سمعوا صوت الرعد استعانوا بسيدي عبد القادر الجيلاني يرحمه الله. أما هو وأترابه من الجيل الشاب، فإنهم لا يفعلون ذلك، ويستعينون بالله وحده.

كان ممن يسمع هذا الحديث عالم دين متخصص في قم، يشارك في النقاش عبر الهاتف، فعلق على مداخلة الجزائري بأن الشيطان أغواه فصرفه عن أولياء الله الصالحين.

هذا موقف فكري آخر يتبناه قطاع من المسلمين، ويدافع عنه عدد من العلماء المسلمين الشيعة والسنة. يرى أصحاب هذا الموقف أن التوحيد لا يتعارض مع الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله. ويقولون: إن من

يفعل هذه الأمور من المسلمين يؤمن بالله ربا لا شريك له، ويرى في تعظيمه للأولياء والأئمة قربة من القربات إلى الله، لأن هؤلاء الناس مكرمون عند الله عز وجل، وأحياء مثل حياة الشهداء، ولذلك يسمعون النداء والدعاء.

ويقول هؤلاء أيضا: إنهم إذا دعوا: يا جيلاني، أو يا حسين، أغثني، فإن قصدهم الباطني هو: يا الله، بجاه الجيلاني أو بجاه الحسين عندك أغثني.

ويستشهد بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤)، لتبرير دعاء غير الله سبحانه والاستغاثة به. ويقولون إن رسول الله يسمع النداء بعد وفاته.

توضيح سياق الآية ٦٤ من سورة النساء

أقول: ثمة وقفتان مهمتان للغاية بشأن هذه الآية.

في البداية، أطلب من الجميع أن يقرؤوا الآية الكريمة في المصحف ويعودوا لسياقها في سورة النساء. يقول تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾.

كما ترون. يدور الحديث في هذه الآيات عن المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ونهج النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر القرطبي ما نصه في شرح الآية ٦٤ التي يستشهد بها بعضهم لتبرير دعاء غير الله عز وجل والاستغاثة بغير الله عز وجل. قال القرطبي:

«الْقَوْل فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتهمْ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، الَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى حُكْم اللَّه وَحُكْم رَسُوله صَدُّوا صُدُودًا ، إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ بِاكْتِسَابِهِمْ إِيَّاهَا الْعَظِيم مِنْ الْإِثْم فِي احْتِكَامهمْ إِلَى الطَّاغُوت وَصُدُودهمْ عَنْ كِتَاب اللَّه وَسُنَّة رَسُوله ، إِذَا دُعُوا إِلَيْهَا جَاءُوك يَا مُحَمَّد حِين فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ مَصِيرهمْ إِلَى الطَّاغُوت رَاضِينَ بِحُكْمِهِ دُون حُكْمك ، جَاءُوك تَائِبِينَ مُنِيبِينَ ، فَسَأَلُوا اللَّه أَنْ يَصْفَح لَهُمْ عَنْ عُقُوبَة ذَنْبهمْ بِتَغْطِيَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَسَأَلَ لَهُمْ اللَّه رَسُولُهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْل ذَلِكَ .

وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْله:﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

... وَأَمَّا قَوْله : ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ فَإِنَّهُ يَقُول : لَوْ كَانُوا فَعَلُوا ذَلِكَ فَتَابُوا مِنْ ذُنُوبهمْ لَوَجَدُوا اللَّه تَوَّابًا ، يَقُول : رَاجِعًا لَهُمْ

ممَّا يَكْرَهُونَ إِلَى مَا يُحِبُّونَ ، رَحِيمًا بِهِمْ فِي تَرْكه عُقُوبَتهمْ عَلَى ذَنْبهمْ الَّذِي تَابُوا مِنْهُ».

هذا سياق الآية. وهذا تفسيرها عند القرطبي.

هل يسمع الأولياء دعاء الداعي وهو بعيد عنهم بآلاف الأميال؟

ولدينا وقفة ثانية مع هذه الآية.

لنقبل على سبيل الإفتراض ما يحاول بعضهم فهمه منها. هم يريدون استخدام الآية لتبرير دعاء غير الله سبحانه والاستغاثة به. ويقولون إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسمع النداء بعد وفاته.

أتساءل هنا: هل يقصد أصحاب هذا الطرح هنا أن من ذهب الى قبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وناداه واستغاث به فإنه يسمعه؟

حسنا، إذا جاز هذا افتراضا، فعلى ماذا يعتمد الذين ينادون: «يا رسول الله، يا علي، يا حسين، يا جيلاني»، وهم في بيوتهم، على بعد مئات أو آلاف الأميال من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، أو قبور هؤلاء الأولياء والأئمة الذين يدعونهم؟

الواقع المَعيش يدل على أن من يقول: يا علي أدركني ، أو المرأة التي تقول في غرفة الولادة: يا علي أدركني، أو السائق الذي يعلق ملصقا على زجاج سيارته مكتوب فيه: يا أبا الغوث أغثني، كل هؤلاء الناس ينادون من يعتقدون في كرامتهم من الأولياء والأئمة وهم بعيدون عن أضرحتهم مئات الأميال، أو آلاف الأميال.

أين الدليل على جواز دعاء غير الله عز وجل؟

وبهذا يتضح أن من يُجَوّز دعاء الأولياء والأئمة يحكم وبجوازها للداعي: سواء ذهب هذا الداعي الى قبور من يدعوهم من الأولياء والأئمة أم لم يذهب.

عندئذ، يحق لنا أن نسأل: أين الدليل على جواز دعاء غير الله عز وجل، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة واضحة لا لبس فيها تبين أنه سبحانه هو وحده الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ووحده الذي يكشف السوء، ويرزق من يشاء بغير حساب؟

الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

ليس في هذه الآية ما يدل على أن الأمر بالخيار، وليس فيها ما يدل على أن بوسع المسلمين أن يتوجهوا بدعائهم إلى الله تعالى أو أن يتوجهوا بدعائهم إلى أحد من الصالحين. فالآية واضحة في أنها، توجه الناس جميعا إلى دعاء الله تعالى وحده.

الدعاء من العبادة

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)

وفي هذه الآية دليل قاطع على أن الدعاء من العبادة، لأن الله تعالى يأمر عباده بالتوجه إليه بالدعاء ويعدهم بالاستجابة، كرما منه

وفضلا، ثم يحذر المستكبرين عن الدعاء ويتوعدهم بجهنم، ويستخدم عبارة العبادة في سياق الحديث عن الدعاء.

وقد استدل ابن كثير في تفسيره لهذه الآية بحديث نبوي شريف رواه الإمام أحمد:

«قَالَ الْإِمَام أَحْمَد حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة حَدَّثَنَا الْأَعْمَش عَنْ زرٍّ عَنْ يُسَيْع الْكِنْدِيّ عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ « إِنَّ الدُّعَاء هُوَ الْعِبَادَة». ثُمَّ قَرَأَ « ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّم دَاخِرِينَ». وَهَكَذَا رَوَاهُ أَصْحَاب السُّنَن التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ وَابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيث الْأَعْمَش بِهِ وَقَالَ التِّرْمِذِيّ حَسَن صَحِيح وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن جَرِير أَيْضًا مِنْ حَدِيث شُعْبَة عَنْ مَنْصُور وَالْأَعْمَش كِلَاهُمَا عَنْ زرّ بِهِ وَكَذَا رَوَاهُ ابْن يُونُس عَنْ أَسِيد بْن عَاصِم بْن مهْرَان حَدَّثَنَا النُّعْمَان بْن عَبْد السَّلَام حَدَّثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ مَنْصُور عَنْ زرّ بِهِ وَرَوَاهُ ابْن حِبَّان وَالْحَاكِم فِي صَحِيحَيْهِمَا وَقَالَ الْحَاكِم صَحِيح الْإِسْنَاد».

تعالوا نتعلم من الأدعية الواردة في القرآن الكريم

ثم لننظر في الأدعية الواردة في القرآن الكريم، وهي كثيرة، وردت على لسان العديد من الأنبياء والصالحين. هل توسل فيها واحد منهم لربه بأحد؟ أو هل دعا واحد منهم غير الله عز وجل بتأويل أو بغير تأويل؟

هذا دعاء سيدنا يونس عليه السلام في لحظة الضيق والشدة: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)

وهذا دعاء سيدنا نوح عندما كذبه قومه واتهموه بالجنون وكادوا له:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ (القمر: ٩-١٠).

وهذا دعاء سيدنا موسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ (طه: ٢٥-٢٨)

وهذا دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

(إبراهيم: ٣٧-٤١)

ومن دعائه أيضا:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٧-١٢٩).

وهذا دعاء بلسان أجيال المؤمنين الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠)

وهذا دعاء امرأة فرعون:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (التحريم: ١١).

وهذا دعاء المؤمنين أولي الألباب:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩٤).

هؤلاء جميعا ينقل القرآن الكريم دعاءهم. ويعلمنا كيف ندعو مثلهم.

هل نقل القرآن الكريم أن نبيا أو أحدا من الصالحين توجه بالدعاء لغير الله عز وجل؟

بعد أن عرضت هذه الأدعية من القرآن الكريم، أسأل جميع المهتمين بهذا الموضوع:

هل قال أحد منهم: يا رب، أتوسل إليك بعلي أو الحسين أو الجيلاني أن تغيثني؟

أو هل قال أحد منهم: يا علي، أو يا جيلاني، بوجاهتك عند الله، أغثني؟

طبعا، لا. والقرآن الكريم نهجه في أمر الدعاء واضح بين من الأمثلة التي عرضناها وليس فيها شك أو غموض.

حكم القرآن الكريم البين الواضح في المسألة: لقد نهى نهيا قاطعا عن دعاء غير الله عز وجل، وعلم المؤمنين كيف يدعون ربهم في آيات بينات تتلى إلى يوم القيامة.

فهل الأفضل اتباع القرآن الكريم أم اتباع تأويلات المؤولين الذين يريدون تجويز دعاء غيره من المخلوقين؟

الدليل من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم

أما الأدعية المأثورة عن الرسول عليه الصلاة والسلام فكلها يتجه فيها النداء لله وحده لا شريك له. أدعية الصباح والمساء، وأدعية الاستغفار، وغيرها، كلها تبدأ بعبارة: اللهم.

ودعاؤه صلى الله عليه وسلم يوم بدر معروف: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد». (سيرة ابن هشام: بيروت، دار الجيل. بدون تاريخ. الجزء الأول. ٦٢٦-٦٢٧)

ودعاؤه المشهور قبل ذلك في المرحلة المكية، بعد صدّه من أهل الطائف، درس لكل مؤمن حريص على معرفة آداب الدعاء.

دروس من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد رحلته إلى الطائف

لقد حرض بعض كبراء أهل الطائف خدمهم وسفهاءهم على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، فأحاطوا به وهو في طريق العودة الى مكة، بعد أن قرر مغادرة هذه المدينة التي أغلقت عقلها وسمعها عن دعوته.

ثم بدؤوا يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة، وقد جلب المشهد فضول أناس آخرين حتى كثر الجمع المناهض للنبي صلى الله عليه وسلم. والنبي عليه الصلاة والسلام صابر يتحمل الأذى، وقد دميت قدماه من حجارة أولئك المتعصبين المتشددين وأعوانهم من السفهاء والمجرمين. ومازال الأمر بالنبي صلى الله عليه وسلم برهة

من الزمن حتى لجأ الى بستان بعيد، يملكه أخوان: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة.

انفرط عقد السفهاء الذين تهجموا على النبي عليه الصلاة والسلام في طريق عودته، وجلس هو دامي القدمين تحت ظل شجرة في بستان ابني ربيعة. إن طريقه في إبلاغ الرسالة لم يكن ممهدا بالأزهار والورود. كان ذاك هو العام العاشر من عمر الدعوة، وها هي التضحيات المطلوبة منه ومن أتباعه تزيد وتكبر. أما الذين اتهموه في عصره أو في العصور اللاحقة، أو في هذه المدة التي علت فيها بعض الأصوات المتطرفة الكارهة للإسلام والمعادية لنبيه، والذين روجوا أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان طالب ملك وزعامة ومال ومتعة، فقد عصفت الحقائق على أرض الواقع بأكاذيبهم. ألم يعرض عليه قومه السيادة وأن يجعلوه ملكا عليهم؟ ألم يعرضوا عليه ما يريده من المال ليكون أغنى شخص فيهم، مقابل أن يتخلى عن دعوته؟ كل ذلك حصل، ولكن محمدا بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) كان رسولا من عند الله وليس طالب ملك وسيادة ومال.

إلى من لجأ النبي -صلى الله عليه وسلم- وقت الضيق؟

لا شك أن اللحظة التي عاشها النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما جرى له من سفهاء الطائف ما جرى كانت لحظة عصيبة وحزينة. فإلى من لجأ يا ترى؟

لقد لجأ إلى الرحمن الرحيم الذي يسمع ويرى. وفي تلك الساعة،

دون المؤرخون واحدا من أجمل الأدعية في تاريخ الرسالات السماوية. قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو ربه:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم الى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

أوردت هذا الدعاء في كتابي «السيرة النبوية للقرية العالمية» وتساءلت: لو طلب من طلاب سنة التخرج في شعبة الفلسفة أو شعبة التاريخ، في جامعات القاهرة وتونس وكامبريدج وهارفرد وبيكين وجاكرتا وطوكيو ونيامي ومراكش وباريس، أن يتخيلوا دعاء نبي الإسلام في تلك الساعة. أكانوا يتخيلونه على هذا الوجه يا ترى؟ أكانوا يتخيلونه من دون كلمة ذم واحدة، ومن دون دعوة واحدة على الذين طاردوه وسبوه وأدموا قدميه بالحجارة؟ أكانوا يتخيلون أن أكبر ما كان يشغل النبي في تلك اللحظة، هو أن لا يكون الله تعالى قد غضب عليه؟

إن هذا الدعاء الجميل يجلي شخصية نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام في ساعات الشدة. عبد من عباد الله، راض بأن يقدم كل ما في وسعه من أجل تبليغ الرسالة التي كلفه الله بها، وأن يتحمل في سبيل ذلك كل ما يلقاه من الأذى، ومنتهى رجائه ألا يغضب الله أو يسخط عليه.

لم يرد فيما قال دعوة واحدة على خصومه الذين آذوه أذيّة شديدة. وحتى عندما واساه الملاك جبريل، وأبلغه أن الله تعالى قادر أن يطبق الجبلين المحيطين بالطائف على أهل ثقيف، لم يطلب النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، وعرض السبب الذي تجاوز به صعوبات اللحظة الحاضرة. قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا».

وقد تحقق فعلا ما تطلع اليه النبي، وغدت الطائف بعد سنوات قليلة من تلك الحادثة مدينة من مدن الإسلام، وعوضت أجيالها المتلاحقة بخدماتها الكثيرة المتصلة للإسلام وقيمه النبيلة عن ذلك الموقف السيء لأبناء عمرو بن عمير وسفهائهم. (محمد الهاشمي الحامدي: السيرة النبوية للقرية العالمية. جدة: دار المنهاج للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨. الطبعة الثالثة. ص: ١١١-١١٣)

الدليل من أدعية أئمة أهل البيت رضي الله عنهم

ولأن بعض المسلمين يتوجهون بالدعاء لأئمة أهل البيت رضي الله عنهم ونفعنا بعلمهم، فإن من المفيد أن نبيّن هدي أعلام أهل البيت في أمر الدعاء.

علي -رضي الله عنه- يحث على دعاء الله وحده من دون الحاجة لشفيع أو وسيط

ونبدأ بما نسب للإمام علي بن أبي طالب في «نهج البلاغة» وهو ينصح ابنه الحسن رضي الله عنهما، ويعلمه أن الله أمره بالدعاء

وتكفل بالاستجابة، ولم يجعل بينه وبين الداعي حاجبا، ولم يلجئه إلى شفيع يشفع له عنده سبحانه وتعالى.

قال الإمام علي -رضي الله عنه-: وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذي بيَدِه خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ في الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بالإِجَابَةِ.

أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ليُعْطيَكَ، وَتَسْتَرْحمَهُ ليَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْه.

وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ منَ التَّوْبَة، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بَالنِّقْمَة، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بالإِنَابَة، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضيحَةُ بكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في قَبُولِ الإِنَابَة، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بالْجَريمَة، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ منَ الرَّحْمَة.

بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، بَابَ الاسْتِعْتَاب.

فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاك، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْه بحَاجَتكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْه هُمُومَك، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِك، وَسَأَلْتَهُ منْ خَزَائِنِ رَحْمَتِه مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِه غَيْرُهُ، منْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ.

ثُمَّ جَعَلَ في يَدَيْكَ مَفَاتيحَ خَزَائِنه بمَا أَذِنَ لَكَ فيه منْ مَسْأَلته: فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعَمِه، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِه.

فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِه، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّة، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الأَمِلِ.

(المصدر نهج البلاغة. الكتاب ٣١ ، بعنوان: ومن وصيّته له عليه السلام للحسن بن علي عليهما السلام، كتبها إليه «بحاضرين»عند انصرافه من صفّين. الرابط في شبكة الانترنت:

(http://www.balagh.net/arabic/nahj/index.htm

وفي كل أدعية الإمام علي رضي الله عنه دون استثناء، نجد أن المخاطب بالدعاء هو ربنا السميع المجيب، ملك الملوك، من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

على زين العابدين على نهج جده رضي الله عنهما: التوجه لغير الله في الدعاء زلة وعثرة وغفلة

وعلى نهج الإمام علي، سار حفيده علي زين العابدين بن الحسين، الإمام السجاد، رضي الله عنه وعن أبيه وجده.

هذا الإمام العابد الصالح، تروى عنه أدعية كثيرة في الصحيفة السجادية. وكل هذه الأدعية بلا استثناء المخاطب فيها هو الله سبحانه وتعالى وحده من دون شريك.

ومنها على سبيل المثال دعاؤه في طلب الحوائج، وفيه حث ظاهر على التوجه بالدعاء إلى الله وحده وتحذير شديد من التوجه بالدعاء لغيره أو من طلب الشفيع والواسطة إليه. يقول رضي الله عنه:

يَا مَنْ لاَ تَنْقَطِعُ عَنْهُ حَوَائِجُ الْمُحْتَاجِينَ وَيَا مَنْ لاَ يُعَنِّيهِ دُعَاءُ الدَّاعِينَ: تَمَدَّحْتَ بِالْغَنَاءِ عَنْ خَلْقِكَ وَأَنْتَ أَهْلُ الْغِنَى عَنْهُمْ، وَنَسَبْتَهُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَهُمْ أَهْلُ الْفَقْرِ إِلَيْكَ.

فَمَنْ حَاوَلَ سَدَّ خَلَّته مِنْ عِنْدِكَ وَرَامَ صَرْفَ الْفَقْرِ عَنْ نَفْسِه بِكَ فَقَدْ طَلَبَ حَاجَتَهُ فِي مَظَانِّهَا وَأَتَى طَلِبَتَهُ مِنْ وَجْهِهَا. وَمَنْ تَوَجَّهَ بِحَاجَتِه إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَوْ جَعَلَهُ سَبَبَ نُجْحِهَا دُونَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْحِرْمَانِ، وَاسْتَحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَوْتَ الاِحْسَانِ.

أَللَّهُمَّ وَلِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ قَصَّرَ عَنْهَا جُهْدِي، وَتَقَطَّعَتْ دُونَهَا حِيَلِي، وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي رَفْعَهَا إِلَى مَنْ يَرْفَعُ حَوَائِجَهُ إِلَيْكَ، وَلاَ يَسْتَغْنِي فِي طِلِبَاتِه عَنْكَ، وَهِيَ زَلَّةٌ مِنْ زَلَلِ الْخَاطِئِينَ، وَعَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ الْمُذْنِبِينَ، ثُمَّ انْتَبَهْتُ -بِتَذْكِيرِكَ لِي- مِنْ غَفْلَتِي وَنَهَضْتُ -بِتَوْفِيقِكَ- مِنْ زَلَّتِي، وَنَكَصْتُ بِتَسْدِيدِكَ عَنْ عَثْرَتِي وَقُلْتُ: سُبْحَانَ رَبِّي كَيْفَ يَسْأَلُ مُحْتَاجٌ مُحْتَاجاً، وَأَنَّى يَرْغَبُ مُعْدِمٌ إِلَى مُعْدِمٍ؟

فَقَصَدْتُكَ يا إِلهِي بِالرَّغْبَةِ، وَأَوْفَدْتُ عَلَيْكَ رَجَائِي بِالثِّقَةِ بِكَ، وَعَلِمْتُ أَنَّ كَثِيرَ مَا أَسْأَلُكَ يَسِيرٌ فِي وُجْدِكَ، وَأَنَّ خَطِيرَ مَا أَسْتَوْهِبُكَ حَقِيرٌ فِي وُسْعِكَ، وَأَنَّ كَرَمَكَ لاَ يَضِيقُ عَنْ سُؤَالِ أَحَدٍ، وَأَنَّ يَدَكَ بِالْعَطَايَا أَعْلَى مِنْ كُلِّ يَدٍ.

هذا الدعاء، وكل الأدعية المأثورة عن أئمة أهل البيت رضي الله عنهم، كلها بلا استثناء، الدعاء فيها موجه الى الله تعالى وحده.

وكما ظهر من الأدلة التي أثبتناها، فإن أئمة أهل البيت لم يكتفوا بدعاء الله وحده والامتناع التام عن دعاء غيره. وإنما قالوا للمسلمين: لا تدعوا مع الله أحدا.

سيدنا علي -رضي الله عنه- قال: إن الله أذن لك في الدعاء ولم يجعل بينك وبينه حاجبا ولم يلجئك إلى شفيع يشفع لك عنده".

والإمام السجاد قال لنا إن رفع الحوائج لغير الله: "زلة من زلل الخاطئين وعثرة من عثرات المذنبين"، وتساءل محتارا متعجبا: "سبحان ربي. كيف يسأل محتاج محتاجا، وأنى يرغب معدم إلى معدم".

فيا أيها المسلمون في كل البلاد ومن كل مذهب: هل بقيت بعد كل هذه الأدلة حجة واحدة لمن يقول يا علي يا حسين، يا جيلاني؟

القول في الوسيلة والتوسل

ربما يقول قائل: هؤلاء أئمة مكرّمون. أولياء صالحون مقربون. وأحياء عند ربهم يرزقون، يسمعون الدعاء. لذلك فإنهم شفعاؤنا إلى الله تعالى. هم الوسيلة إلى الله تعالى. والله تعالى أمر المؤمنين باتخاذ الوسيلة، في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(المائدة: ٣٥). وفي قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾. (الإسراء: ٥٧)

وجواب هذا القول بثلاثة وجوه:

١ ـ الأول أن الوسيلة في الآيتين تعني التقرب إلى الله تعالى بطاعته. قال الطبري في تفسيره عن قتادة: «﴿وَابْتَغُوا إِلَيْه الْوَسِيلَة﴾ أَيْ تَقَرَّبُوا إِلَيْه بِطَاعَتِه وَالْعَمَل بِمَا يُرْضِيه». ونقل ابن كثير أيضا هذه الرواية في تفسيره وأيدها.

٢ ـ وقال المفسرون أيضا إن «الوسيلة» هي أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها. ولهذا صلة بالحديث الشريف الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم: « مَنْ قَالَ حين يَسْمَع النِّدَاء اللَّهُمَّ رَبّ هَذه الدَّعْوَة التَّامَّة وَالصَّلَاة الْقَائمَة آت مُحَمَّدًا الْوَسيلَة وَالْفَضيلَة وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذي وَعَدْته إلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْم الْقيَامَة».

تفسير سيدنا علي رضي الله عنه للوسيلة وتأكيده بأنها الإيمان والعمل الصالح

٣ ـ وبالإضافة إلى ما سبق بيانه، ولتوضيح المسألة لكل باحث عن الحق، وقطع الطريق على كل من يحاول الاستهانة بعقول المسلمين، وصرفهم عن التوحيد الخالص النقي بجهل وقلة علم، أو بقصد سيء، نورد هنا الشرح الضافي الوافي لمعنى الوسيلة والتوسل عند سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

اسمعوا أيها الناس ما يقوله الإمام علي في معنى التوسل والمتوسلين:

(إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص إنها الفطرة، وإقامة الصلاة فإنه الملة، وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنها جُنة من العقاب، وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويدحضان الذنب، وصلة الرحم فإنها مثراة في المال ومنسأة في الأجل، وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة، وصدقة

العلانية فإنها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع الهوان) (نهج البلاغة: الخطبة ١١٠. من خطبة له عليه السلام في أركان الدين. الرابط في شبكة الانترنت:

(http://www.balagh.net/arabic/nahj/index.htm

هذا بيان صريح مفصل من الإمام علي عن معنى الوسيلة يحصرها في الإيمان بالله سبحانه وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالعمل الصالح.

بيان صريح مفصل، منسجم مع توجيهات القرآن الكريم، ومع أدعية القرآن الكريم، ومع توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم.

بيان كاف شاف يطمئن به المؤمن، ومن كان عنده شك أوشبهة، ويتيقن بأن النهج الصحيح للمؤمن الموحد هو إفراد الله تعالى بالدعاء، والتوجه له وحده بطلب الحاجات التي لا يقدر على إعطائها غيره، مثل زيادة الأعمار وصحة الأبدان وسعة الأرزاق.

رد على شبهة لمركز الأبحاث العقائدية

مركز الأبحاث العقائدية، الذي هو موقع من مواقع المرجع الشيعي المعروف آية الله العظمى السيد علي السيستاني، علق على توجيه الإمام علي رضي الله عنه وشرحه لمعنى الوسيلة، في جواب منشور في باب الأسئلة العقدية، في موقع المركز في شبكة الإنترنت.

أورد الموقع أولا نص السؤال الوارد إليه، وهو:

تستدلون على التوسل بالنبي والائمة بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ بينما فسر علي رضي الله عنه الوسيلة بالعمل الصالح كما جاء في نهج البلاغة خطبة ١١٠ حيث قال: إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة، وأقام الصلاة فإنها الملة. انتهى. فما تفسيركم لهذا التناقض بين الآية الكريمة وكلام علي رضي الله عنه في نهج البلاغة ؟

ثم عرض مركز الأبحاث العقائدية، الذي هو موقع من مواقع المرجع الشيعي المعروف آية الله العظمى السيد علي السيستاني، جوابه عن السؤال، وهذا نصه:

«ليس هناك تناقض بين الآية الكريمة وكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ، لأنه وردت روايات تفسر الوسيلة بالعمل الصالح ، وأيضا وردت عندنا روايات تفسر الوسيلة بمعنى التوسل بالنبي وأهل بيته (صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين) .

ثم إن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يحصر الوسيلة في العمل الصالح وإنما قال : أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى كذا وكذا، وذكر مجموعة من الأعمال الصالحة ، وهذا معناه توجد وسائل فاضلة ولكن هذا أفضل .

ومن المعلوم أن أفعل التفضيل تأتي للمفاضلة بين أمرين مشتركين في النوع مختلفين في الدرجة في الغالب . فعندما نقول : أفضل الصلوات الصلاة الوسطى ، فهذا لا يعني أن بقية الصلوات غير مطلوبة .

وعندما نقول : أفضل الليالي في شهر رمضان ليلة القدر ، فهل معناه أن غيرها ليس فيها فضيلة ؟! كلا . وعندما نقول : أفضل الوسائل العمل الصالح أو التقوى، لا يعني أن بقية الوسائل من التوسل بالنبي وأهل بيته (عليهم السلام) ليس لها فضيلة .

وإن قلت: إذن التوسل بالعمل الصالح أفضل من التوسل بالأشخاص .

قلت (مازال الحديث لمركز الأبحاث العقائدية): إن الملاك الأساسي للوسيلة وذي الوسيلة أي الشخص المتوسل والمتوسَل به، الملاك في كليهما هو تقوى الله عز وجل، يعني الذي يجعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا المقام عند الله عز وجل هو بتقواه، وهكذا الإنسان المتوسل كلما كان أكثر تقوى كان أكثر استجابة ، إذن الملاك لكل منهما هو القرب إلى الله عز وجل .

ثم إن دليلنا على التوسل ليس هو الآية فقط، وإنما دليلنا آيات أخرى منها : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧)، فهنا لم يقولوا : اللهم إنا نستغفر أو اغفر لنا ، بل قالوا : يا أبانا استغفر لنا ، أي اطلب لنا من الله تعالى المغفرة . فهذا توسل بأبيهم يعقوب (عليه السلام).

وهكذا نحن نأتي إلى الإمام (عليه السلام) ونقول له : بجاهك عند الله اسأل الله أن يغفر لنا ويفرّج عنّا .

مضافاً إلى خبر سهل بن حنين الذي يروي قضية توسل ذلك الأعمى بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشفاءه، حيث قال: ((اللهم إني أسألك بحق نبيّك نبيّ الرَحمَة محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)

ردّ عليّ بصري)) فردّ الله تعالى عليه بصره ، وهذه القضية ذكرها البيهقي في سننه». (انتهى جواب مركز الأبحاث العقائدية».

الرابط في شبكة الإنترنت:

(http://www.aqaed.com/faq/print.php?sid=99&qid=181)

أقول أنا محمد الهاشمي: هذا الجواب من مركز السيد السيستاني فيه محاولة غير موفقة للتنصل من المعنى الصريح لتعريف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه للوسيلة. لقد حاول المركز أن يبين أن قول الإمام علي «أفضل ما توسل به المتوسلون» يعني أنه توجد وسائل فاضلة أخرى، ولكن هذا أفضل.

لكن هذا الرد لا يستقيم لسبب بسيط، هو أن أئمة أهل البيت رضي الله عنهم، حذرونا بعبارات صريحة قاطعة لا تحتمل أي تأويل من دعاء غير الله عز وجل، وهم في ذلك يسيرون على نهج القرآن الكريم ونهج الرسول صلى الله عليه وسلم، كما بينا ذلك بالأدلة الواضحة فيما سبق.

إذن: الأمر ليس كما يقول مركز الأبحاث العقائدية مفاضلة بين صيغة صحيحة للدعاء وصيغة أفضل منها وأصح بينها سيدنا علي رضي الله عنه.

لا: الأمر هنا مفاضلة بين صيغة شرعية صحيحة للدعاء، هي التوجه به إلى الله تعالى وحده، وبين صيغة أخرى نهى عنها أئمة أهل البيت رضي الله عنهم بعبارات صريحة لا لبس فيها ولا غموض.

نهى الإمام علي رضي الله عنه عن التوجه بالدعاء لغير الله عز وجل حين قال: «وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذي بِيَدِه خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ. أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ".

وقال سيدنا علي رضي الله عنه في حكمه المنشورة في "نهج البلاغة": "أوصيكم بخمس، لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً: لا يرجون أحد منكم إلاّ ربه، ولا يخافن إلاّ ذنبه، ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: «لا أعلم»، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وعليكم بالصبر!.. فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه".

ومحل الاستشهاد هنا قوله رضي الله عنه: لا يرجون أحد منكم إلا ربه. مما يؤكد نهي أئمة أهل البيت رضي الله عنهم عن دعاء غير الله عز وجل.

ولو كان الأمر جائزا لأوضح ذلك الإمام علي رضي الله عنه، ولأوصى بالتوجه بالدعاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو له هو شخصيا، أو لذريته، رضي الله عنهم.

كما سبق بيان موقف الإمام السجاد الذي يرفض بوضوح، وبعبارات قاطعة لا لبس فيها ولا غموض، التوجه بالدعاء لغير الله عز وجل، واعتبر رفع الحوائج لغير الله: «زلة من زلل الخاطئين وعثرة من

عثرات المذنبين»، وتساءل محتارا متعجبا: «سبحان ربي. كيف يسأل محتاج محتاجا، وأنى يرغب معدم الى معدم».

هذه الأدلة تنسف تماما الحجة الأولى التي أوردها مركز الأبحاث العقائدية عندما حاول تصوير الأمر على أنه مفاضلة بين خيارين مقبولين جائزين. بينما الأمر مفاضلة بين صيغة صحيحة للدعاء أمر بها القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم وأئمة أهل البيت رضي الله عنهم، وصيغ أخرى نهى عنها القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم وأئمة أهل البيت رضي الله عنهم.

الرد على طرح آخر لمركز الأبحاث العقائدية

يقول مركز السيد السيستاني، مركز الأبحاث العقائدية، كأنه يعرف سلفًا أن حجته الأولى غير مقنعة وغير مقبولة منطقيا، يقول باحثا عن دليل آخر، يقول ما يأتي:

«ثم إن دليلنا على التوسل ليس هو الآية فقط ، وانما دليلنا آيات أخرى منها : ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ (يوسف: ٩٧) ، فهنا لم يقولوا : اللهم إنا نستغفرك أو اغفر لنا ، بل قالوا : يا أبانا استغفر لنا ، أي اطلب لنا من الله تعالى المغفرة . فهذا توسل بأبيهم يعقوب (عليه السلام).

وهكذا نحن نأتي إلى الإمام (عليه السلام) ونقول له : بجاهك عند الله اسأل الله أن يغفر لنا ويفرّج عنّا «. (انتهى النقل)

أيها المسلمون، أيها العقلاء، ويا جميع من يفهم اللغة العربية:

لاحظوا الفرق الكبير بين حديث أبناء يعقوب عليه السلام إلى أبيهم وهو حي، ومخاطبة الميت والتوجه له عند الدعاء.

أبناء يعقوب عليه السلام يطلبون من أبيهم أن يستغفر لهم، وهو النبي الفاضل الكريم عليه السلام. هو حي يرزق، وهم أحياء يرزقون. عصبة من الإخوة تآمروا على أخ لهم وألقوه في غيابت الجب، وآذوا والدهم أذى شديدا عدة سنوات. ثم ظهر الحق، واجتمع شمل يعقوب بابنه الغائب يوسف عليهما السلام. وبقي الإخوة الذين تآمروا في السابق في حرج شديد مما فعلوا، فجاؤوا يعتذرون لأبيهم، ويطلبون منه أن يستغفر لهم المولى عز وجل.

هذا أقل الواجب عليهم.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لا حرج مطلقا أن يقول المسلم لأخيه المسلم: اذكرني في دعائك. هكذا بصفة مطلقة. أو يقول له: إنك صائم، فادع الله لي. أو: أنت متجه إلى الحج، فاذكرني في دعائك في الحرم أو في عرفات.

هذا أمر معروف وجائز وليس محل خلاف بين أحد. موضوع الخلاف هو أن تتوجه بالدعاء إلى ميت، وتقول: يا علي أدركني، يا مهدي أغثني، أو: مدد يا جيلاني، هذا هو موضوع النقاش.

توضيح حول قصة سهل بن حنيف

ولأن مركز الأبحاث العقائدية يعرف أن الأمر بيّن، وأن الاستدلال

بقول أبناء يعقوب عليه السلام لا ينفع للدفاع عن طرحه، فإنه يضيف آخر حجة لديه، ويرمي بآخر سهم في جعبته، فيقول ما يأتي:

«مضافاً إلى خبر سهل بن حنين الذي يروي قضية توسل ذلك الأعمى بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشفاءه ، حيث قال : ((اللهم إني أسألك بحق نبيّك نبيّ الرَحمَة محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ردّ عليّ بصري)) فردّ الله تعالى عليه بصره ، وهذه القضية ذكرها البيهقي في سننه». (انتهى النقل)

هذا الأثر عند البيهقي لا ينفع في هذا السياق.

إن مركز الأبحاث العقائدية يستشهد هنا بحديث لم يرد في صحيح البخاري ولا في صحيح مسلم، ومع ذلك فنص الدعاء فيه كما هو وارد في استشهاد مركز الأبحاث العقائدية: اللهم إني أسألك بحق نبيّك نبيّ الرَحمَة محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ردّ عليّ بصري».

هذا النص حجة على مركز الأبحاث العقائدية لا حجة له. لأنه لا يوجد نزاع مع كل من يقول اللهم إني أسألك. أما من يدعو بشرا من دون الله تعالى فهو مخطئ مجانب للصواب مخالف لهدي القرآن الكريم والنبي -صلى الله عليه وسلم- وأئمة أهل البيت رضي الله عنهم.

يا ليت آية الله السيد علي السيستاني يفتي لأتباعه ويأمر مقلديه ألاّ يتوجهوا بدعائهم إلا إلى الله عز وجل. يا ليته يقول لهم ابدؤوا كل دعاء بعبارة: اللهم إني أسألك، أو يا رب، أو يا أرحم الراحمين.

الخلاف الرئيس: هل يقول الداعي يا ألله، أم يدعو غيره؟

كما ترون: الخلاف في أمر الدعاء هو فقط مع الذين يتوجهون بدعائهم لغير الله عز وجل، وبدل أن يقولوا: اللهم، يقولون: يا علي، يا حسين، أو يا جيلاني، مع علمهم أن الله تعالى أمر جميع المؤمنين وقال لهم «ادعوني أستجب لكم»، وأكد مرات عديدة أنه سبحانه الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويرزق من يشاء بغير حساب.

الخلاف الرئيس والأساس هو فقط مع الذين يقولون يا علي، يا حسين، يا جيلاني.

ما نركز عليه هنا، في سياق حديثنا عن عظمة التوحيد وأهميته، وضرورة أن يحرص المسلم على تجنب كل ما من شأنه أن يخدش في نقائه، هو أن الأمر مفاضلة بين صيغة صحيحة للدعاء أمر بها القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم وأئمة أهل البيت رضي الله عنهم، يبدأ فيها الدعاء بالتوجه إلى الله تعالى وحده، وصيغ أخرى نهى عنها القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم وأئمة أهل البيت رضي الله عنهم، صيغ يبدأ الداعي فيها دعاءه بالتوجه لغير الله عز وجل.

وكما رأيتم، فإن مركز الأبحاث العقائدية، الذي هو موقع من مواقع المرجع الشيعي المعروف آية الله العظمى السيد علي السيستاني، لم يستطع تدبير حجة واحدة مقبولة لتبرير التوجه بالدعاء لغير الله عز وجل.

وإن عجز مركز الأبحاث العقائدية عن تقديم الدليل المقنع لتجويز دعاء غير الله عز وجل، لدرس عظيم لكل باحث عن الحق، وحافز آخر قوي على الالتزام بهدي القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم وأئمة أهل البيت رضي الله عنهم في الدعاء.

لذلك أقول لكل مسلم: عد إلى توجيه القرآن الكريم. واجعل كل رجائك في الرحمن الرحيم، السميع المجيب، القادر على كل شيء، القائل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾. (البقرة: ١٨٦)

وأحذر أيها المسلم من مخالفة توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوجيه أئمة أهل البيت رضي الله عنهم جميعا.

ثم استخدم عقلك لتعرف: من هو الذي يتبع منهج أهل البيت في هذا الأمر العظيم من أمور العقيدة وأمور الإسلام؟

مسألة فرعية: من أكثر حبا لأئمة أهل البيت؟

وأقول في مسألة فرعية متصلة بما عرضته آنفا: إن من يرمي عرض الحائط بتوجيهات أئمة أهل البيت في آداب الدعاء والتوسل ليس محبا لأهل البيت على الوجه الصحيح، مهما ادعى حبهم وموالاتهم، لأن المحب في هذا السياق المهم يقتدي بمن يحبه، ويمتثل لتعاليمه، وحق لنا أن نتمثل بقول الأول:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه

هذا لعمري في القياس شنيع

من يرد التوجيهات الواضحة للإمام علي رضي الله عنه في آداب الدعاء، وتوجيهات الإمام السجاد، ليس محبا لهما حبا حقيقيا ولو ادعى خلاف ذلك. وعندئذ فليس من العقل والحكمة الثقة به وبما يقوله في كثير من المسائل الأخرى، التي تؤدي في واقع الأمر وبالتجارب الملموسة، إلى إدامة الفرقة والانقسام بين المسلمين، ونشر ثقافة الكراهية والبغضاء والثأر في نفوسهم وفي مجتمعاتهم.

وقد يكون المحب صادقا وتقبل دعواه. لكن الحب وحده لا يكفي يا محبي أئمة أهل البيت. الحب في هذا السياق الديني يجب أن يوجهه العلم، والدليل الصحيح. وقد ظهرت الأدلة من كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن توجيهات أعلام أئمة أهل البيت رضي الله عنهم.

فأين المحبون الذين يقبلون الدليل، ويعودون للحق إذا اكتشفوا أنهم كانوا على خطأ؟

قدمت نصيحتي هذه، وكل الأفكار التي تضمنتها رسالتي في التوحيد، بناء على ما درسته وسمعته وتعلمته. لا أدعي العصمة، وأقول: ذلك مبلغي من العلم، والله تعالى أعلم.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا حبه، وحب نبيه صلى الله عليه وسلم وآل بيته وصحابته الأخيار، وأن يجعلنا من محبي أهل الإيمان والصلاح والتقوى، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، ويعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، ويجعلنا من أهل السعادة في الدنيا والآخرة، إنه تعالى سميع مجيب.

خاتمة

أقول في خاتمة هذه الرسالة:

إن ما عرضته من أفكار في هذه الرسالة هي ثمرة اجتهادي الشخصي الذي لا يلزم أحدا غيري. أرجو من جميع القراء الكرام النظر إلى أجوبتي كاجتهاد شخصي من ثمرات قراءاتي في الأعوام القليلة الماضية ومشاركتي في العديد من الندوات الحوارية ذات الصلة بالتجديد الديني، وهو نوع من التساؤل والتفكير الحر بصوت عال، في موضوعات ثقافية وفكرية وتاريخية مهمة، ومحاولة لتعميق النقاش حول هذه الموضوعات واستثارة همم أهل العلم والاختصاص لمزيد البحث والتجديد والاجتهاد.

وإنني أرحب بأي رد على ما كتبته، وبأي تعديل أو تصحيح، خاصة إذا صدر عن أي كاتب أو هيئة، تطرقت له أو لها، في رسالتي هذه. وإنني أنفتح على الرأي المخالف وأرحب به وبأصحابه.

وأضيف: إن أفكاري التي عرضتها في هذه الرسالة لا تلزم قناة المستقلة الفضائية التي أديرها. قناة المستقلة مؤسسة إعلامية حرة مستقلة تنفتح على العديد من التيارات والأطروحات الفكرية

والسياسية، وتسعى دائما لإتاحة الفرصة للباحثين والمفكرين المشاركين في برامجها للاجتهاد والتجديد وممارسة النقد الموضوعي الحر، والإسهام من خلال ذلك في نشر وترويج ثقافة الحوار والتسامح والقبول بالتعددية وحق الاختلاف في المجتمعات العربية والإسلامية، وفي محاصرة ثقافة الكراهية والتعصب والانغلاق.

بعد هذا التوضيح، أسجل هنا أنني عرضت مسودة الرسالة على الأصدقاء: الدكتور محمد الفاضل، والدكتور محمد بن إبراهيم السعيدي، والدكتور محمد بن عبد الرحمن الأهدل، وثلاثتهم أساتذة جامعيون في المملكة العربية السعودية. الدكتور محمد الفاضل أسمعني ثناءً وافرًا سخيًا على ما كتبته، والدكتور السعيدي والدكتور الأهدل أثنيا على الرسالة أيضًا وبعثا إليّ بعض الملاحظات والتصحيحات التي استفدت منها. فجزاهم الله عني كل خير وبارك فيهم وأحسن إليهم.

ثم تحدثت مع القائمين على مكتبة العبيكان في الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، لمناقشة إمكانية نشر رسالتي من قبل المكتبة. تحدثت مع الصديقين الفاضلين: الشيخ فهد العبيكان الذي رحب بمبدأ التعاون قبل الإطلاع على الرسالة، ثم مع أخيه الدكتور عبد العزيز الثنيان الذي قرأ الرسالة ووجه بنشرها. وإنني أعرب عن تقديري لهذين الصديقين العزيزين، وعن سعادتي بالتعاون مع مكتبة العبيكان، التي غدت اليوم اسما كبيرا في عالم النشر وفي الساحة الثقافية العربية، وأدعو للقائمين عليها بالتوفيق والمزيد من النجاح.

هذا وقد فرغت من كتابة هذه الرسالة يوم الإثنين ١٢ شعبان ١٤٣٠ هجرية، الموافق للثالث من أغسطس - آب، ٢٠٠٩ ميلادية. فالحمد لله الذي يسر لي إتمامها. الحمد لله كثيرا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. وأسأله تعالى أن يغفر لي ما كان فيها من تقصير وسهو وخطأ، وينفع بما كان فيها من رأي صائب وحجة صحيحة.

وأسأله تعالى بفضله وكرمه أن يتقبلها مني خالصة لوجهه الكريم، وأن يدخلها في عداد الصدقة الجارية، ويغفر لي بها ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب، ويبارك بها لي في نفسي وزوجتي وذريتي، وأن يجعلها في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله وسلم على النذير البشير، والسراج المنير، سيد البشر وخاتم النبيين، ذي الخلق العظيم، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، صلاة وسلاما متلازمين إلى يوم الدين.

ملحق

ثلاث خطوات إلى الأمام في التقريب بين المذاهب والفرق الإسلامية

بعد الفراغ من تحرير الكتاب وتصحيحه، وإعداد نسخته الأولى للطباعة، وجدت من المفيد أن أضيف إليه هذا الملحق، وأضع فيه على ذمة القراء ثمار ما توصل إليه عدد من الباحثين والمفكرين والعلماء الذين تشرفت باستضافتهم وإدارة الحوار بينهم في رمضان ١٤٣٠ هجرية، ٢٠٠٩ ميلادية، حول أمور وثيقة الصلة بالتوحيد.

جرى الحوار في قناة المستقلة الفضائية في لندن، وأذيع على الهواء مباشرة، ضمن حلقات يومية من برنامج «الحوار الصريح بعد التراويح»، وكان الضيوف ينتمون إلى المدارس الصوفية، والسلفية، والشيعية، بالإضافة إلى مدرسة جماعة الإخوان المسلمين.

ومع أن بعض المثقفين المسلمين يشعرون باليأس من إمكانية

التقريب بين المذاهب والفرق الإسلامية، فإن تجربتي الشخصية في إدارة الحوار بين أهل هذه الفرق خلال ما يقرب من عقد من الزمان، أثبتت لي أن التقارب ممكن، وتغيير العقليات غير مستحيل، وتجديد الفكر الإسلامي هدف قريب المنال.

هناك مفاهيم وأفكار ورثناها، ونشأنا عليها، وكثير منها لا يصمد أمام الأدلة الشرعية الصحيحة وأساسيات المنطق السليم وعلوم عصرنا. كيف نكتشف ذلك؟ نكتشفه بالحوار الصريح البنّاء بين العلماء والمفكرين، من مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية.

فإذا صبرنا على الحوار، وتحمل بعضنا بعضا، وحاكمنا مفاهيمنا الموروثة إلى أنوار الشريعة، وحجج العقل، وأيضا إلى تجارب الأمم الأخرى من حولنا، التي نقدت تراثها وجددت أفكارها، إذا فعلنا ذلك، وأكرمنا الله الكريم بتوفيقه قبل كل شيء، فإن فرص نجاحنا كبيرة جدا، أعني النجاح في تجديد فكرنا الديني، ونفض الغبار عن التعاليم الدينية الصحيحة، وتحرير العقل المسلم من الجمود والتخلف والخرافة.

ويسعدني أن أقدم الدليل من مناقشات برنامج «الحوار الصريح بعد التراويح» لهذا العام، حيث أثمرت عشرون سهرة، وخمس وأربعون ساعة، من الحوار والنقاش الحر الشفاف، ثلاثة بيانات مشتركة، كان بعض المشاهدين يتوقع أن صدورها من سابع المستحيلات وهي كالآتي:

البيان الأول:

بيان صوفي ـ سلفي ـ إخواني ـ شيعي مشترك حول وجوب التوجه إلى الله سبحانه وتعالى وحده عند الدعاء

لندن: في ٦ رمضان ١٤٣٠ هجري

٢٧ أغسطس ٢٠٠٩ ميلادي

بثت قناة المستقلة الفضائية في لندن حلقات يومية من برنامجها الثقافي «الحوار الصريح بعد التراويح»، في الفترة من ١ إلى ٦ رمضان ١٤٣٠ هجري، الموافق ٢٢ إلى ٢٧ أغسطس ٢٠٠٩، بإدارة رئيس القناة الدكتور محمد الهاشمي الحامدي.

دار الحوار حول رؤية المدارس الصوفية، والسلفية، والإخوانية (نسبة إلى جماعة الإخوان المسلمين) للعلاقة بين العقيدة والسياسة، ولموضوع التوحيد بوجه خاص. وشارك في النقاش ضيوف ممثلون لهذه المدارس الثلاث.

وفي مساء السادس من رمضان ١٤٣٠ هجري، اتفق المشاركون في البرنامج، أمام المشاهدين، على إصدار هذا البيان المشترك:

بناء على قول الله سبحانه وتعالى ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ومعناها: اسألوني أستجب لكم، فإن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بسؤاله، جل في علاه، والإقبال عليه سبحانه وتعالى.

فالواجب على المسلم أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى في جميع شؤونه وفي جميع أموره، لأنه هو سبحانه وتعالى مصدر العطاء، جل في علاه.

وإذا أخطأ مسلم عامي وتوجه بالدعاء لغير الله عز وجل فالواجب على أهل العلم أن يوضحوا له ويبينوا له المنهج الصحيح، دون أن يرموه بالكفر.

ونقول لكل إخواننا في الله تعالى، لجميع المسلمين: المطلوب منا جميعا -نحن المسلمين- أن نلجأ إلى الله سبحانه وتعالى في كل شؤوننا وفي جميع أحوالنا.

والملاحظ أن بعض الناس يقعون في الخطأ، متوجهين بالدعاء لغير الله عز وجل، ويقولون نحن تعودنا على ذلك، ووجدنا آباءنا يفعلونه. وهذا خطأ.

وينبغي على المسلم أن يكون عالما بدينه، وأن يعرف أن الواجب عليه أن يقبل على الله سبحانه وتعالى بقلبه في جميع الشؤون، وألاّ يلجأ إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى وحده، بيده النفع والضر، جل في علاه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

ضيوف البرنامج الموقعون على البيان:

١ ـ جمعة أمين، عضو مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين في جمهورية مصر العربية.

٢ ـ د. عبد الرحيم ملازاده البلوشي، باحث إيراني متخصص في الدراسات الإسلامية. (من المدرسة السلفية)

٣ ـ د. جلال الدين محمد صالح: أستاذ جامعي من أريتريا، متخصص في الدراسات الإسلامية. (مستقل، قريب من المدرسة السلفية)

٤ ـ الشيخ محمد يحي الكتاني، إمام جامع سيدي ياقوت العرش في الإسكندرية، بجمهورية مصر العربية. (من المدرسة الصوفية)

٥ ـ كما تحدث في البرنامج عبر الهاتف، العلامة الشيعي المجتهد السيد علي الأمين، مفتي صور الجعفري السابق، ووافق على البيان، ورحب به، وطلب إضافة اسمه إلى قائمة الموقعين عليه.

البيان الثاني

بيان سلفي - إخواني - شيعي مشترك حول عدم صحة طلب المدد والغوث من الأنبياء والأولياء

بسم الله الرحمن الرحيم

لندن: في ١٥ رمضان ١٤٣٠ هجري
٥ سبتمبر ٢٠٠٩ ميلادي

بثت قناة المستقلة الفضائية في لندن حلقات يومية من برنامجها الثقافي "الحوار الصريح بعد التراويح"، في الفترة من ١ إلى ١٥ رمضان ١٤٣٠ هجري، الموافق ٢٢ أغسطس إلى ٥ سبتمبر ٢٠٠٩، بإدارة رئيس القناة الدكتور محمد الهاشمي الحامدي.

دار الحوار حول رؤية المدارس الصوفية، والسلفية، والإخوانية (نسبة إلى جماعة الإخوان المسلمين)، والشيعية، للعلاقة بين العقيدة والسياسة، ولموضوع التوحيد بوجه خاص. وشارك في النقاش ضيوف ممثلون لكل هذه المدارس.

وقد اتفق الضيوف المنتمون للمدارس السلفية والإخوانية والشيعية

على إصدار هذا البيان المشترك:

اتفق المتحاورون في برنامج "الحوار الصريح بعد التراويح"، في قناة المستقلة، يوم السبت، الخامس عشر من رمضان ١٤٣٠ هجري، على عدم صحة التوجه بالدعاء لغير الله سبحانه وتعالى.

واتفقوا بعد ذلك أيضا على عدم صحة الاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى، وإظهارها بصيغة لفظية يقول فيها الداعي: مدد يا رسول الله مدد، أو مدد يا علي مدد، أو مدد يا جيلاني مدد، أو مدد يا بدوي مدد، أو يا رسول الله أغثني، يا علي أدركني، يا جيلاني أغثني، وأمثال هذه الصيغ، لأنها بمدلولها اللغوي ظاهرة في طلب العون المباشر من المنادى (بفتح الدال)، وهو في هذه الصيغ غير الله سبحانه وتعالى.

وإذا أخطأ المسلم بطلب المدد والغوث من الأنبياء والأولياء، فالواجب على أهل العلم أن يوضحوا له ويبينوا له المنهج الصحيح، دون أن يرموه بالكفر.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

ضيوف البرنامج الموقعون على البيان:

١ ـ جمعة أمين، عضو مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين في جمهورية مصر العربية.

٢ ـ العلامة الشيعي المجتهد السيد علي الأمين، مفتي صور الجعفري السابق.

٣ ـ د. عبد الرحيم ملازاده البلوشي، باحث إيراني متخصص في الدراسات الإسلامية. (من المدرسة السلفية)

٤ ـ د. جلال الدين محمد صالح: أستاذ جامعي من أريتريا، متخصص في الدراسات الإسلامية.

٥ ـ الشريف عبد الحليم العزمي، كاتب مصري، رئيس تحرير مجلة "الإسلام وطن"، من الطريقة الصوفية العزمية. (وافق العزمي بعد يوم إضافي من المناقشات، أي يوم ١٦ رمضان)

٦ ـ الشيخ نبيه الإسماعيل: شيخ الطريقة الصوفية القادرية في دمشق، وقد تدخل هاتفيا وأعلن موافقته على البيان دون تحفظ.

٧ ـ عامر شعبان: وكيل المجلس الصوفي الأعلى في جمهورية مصر العربية، وقد اتصل هاتفيا بالبرنامج وأعلن موافقته على البيان دون تحفظ.

البيان الثالث

بيان سلفي - إخواني - صوفي مشترك في النهي عن بناء المساجد على القبور

بسم الله الرحمن الرحيم

لندن: في ٢٠ رمضان ١٤٣٠ هجري

١١ سبتمبر ٢٠٠٩ ميلادي

بثت قناة المستقلة الفضائية في لندن حلقات يومية من برنامجها الثقافي "الحوار الصريح بعد التراويح"، في الفترة من ١ إلى ٢٠ رمضان ١٤٣٠ هجري، الموافق ٢٢ أغسطس إلى ١١ سبتمبر ٢٠٠٩، بإدارة رئيس القناة الدكتور محمد الهاشمي الحامدي.

دار الحوار حول رؤية المدارس الصوفية، والسلفية، والإخوانية (نسبة إلى جماعة الإخوان المسلمين)، للعلاقة بين العقيدة والسياسة، ولموضوع التوحيد بوجه خاص. وشارك في النقاش ضيوف ممثلون لكل هذه المدارس.

وقد اتفق الضيوف المنتمون للمدارس السلفية والإخوانية والصوفية

على اصدار هذا البيان المشترك:

إن الله تعالى شرع بناء المساجد لعبادته وذكره ولإقامة الصلاة فيها. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾. (الجن:١٨) وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (النور ٣٦-٣٧)

وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إنكاره الشديد لصنيع بعض المتدينين في الأمم السابقة من بناء المساجد على القبور ووضع الصور فيها، إذ قال فيهم: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله".

وثبت أيضا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقم مسجدا على قبر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، أو قبر ابنه إبراهيم، أو على قبر أي شهيد من شهداء بدر وأحد وبقية معارك الإسلام الأخرى التي جرت في حياته صلى الله عليه وسلم.

كما صح أيضا أن الخلفاء الراشدين لم يبنوا المساجد على قبور كبار الصحابة.

وصح أن سيدنا عليا -رضي الله عنه- لم يبن المساجد على قبور أهل البيت الذين ماتوا في حياته.

وثبت أن أشهر أئمة الفقه في التاريخ الإسلامي أكدوا كراهة بناء القبور على المساجد. قال الإمام الشافعي رحمه الله: "وأكره أن يبنى على القبر مسجد، وأن يسوّى، أو يصلّى عليه وهو غير مسوى، أو يصلّى إليه". وإذا كانت الصلاة إلى القبر محرمة بإجماع المسلمين، فإن من الواضح أن الإمام الشافعي يتحدث في هذه الفقرة عن الكراهة التحريمية.

وقال أيضا -رحمه الله-: وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس .

وقد صح عن الأحناف أيضا قولهم بالكراهة التحريمية. قال الإمام محمد بن الحسن -رحمه الله - تلميذ أبي حنيفة - رحمه الله-: "لا نرى أن يزاد على ما خرج من القبر، ونكره أن يجصص، أو يطين، أو يجعل عنده مسجد".

وقد صح هذا الرأي أيضا عن المالكية. قال القرطبي المالكي: "يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد". وبهذا الرأي قال الشيخ الطاهر بن عاشور التونسي من معاصري المالكية.

وصح أيضا عن الحنابلة. قال ابن القيم: "نص على ذلك الإمام أحمد - رحمه الله - وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق".

كما نقل هذا الرأي أيضا عن الإمام جعفر الصادق رضي الله

عنه. جاء في كتاب "وسائل الشيعة" عن محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن سماعة بن مهران أنه سأل أبا عبدالله (عليه السلام) عن زيارة القبور و بناء المساجد فيها، فقال: أما زيارة القبور فلا بأس بها، ولا تبنى عندها مساجد". ورواه الكليني عن أحمد بن محمد، عن عثمان بن عيسى، عن سماعة قال: سألته، وذكر مثله.

وذهب جمهور كبير من العلماء المعاصرين، منهم عدد كبير من مشايخ الأزهر الشريف، إلى هذا الرأي، ونهوا بشدة عن بناء المساجد على القبور.

وظاهر أن الحكمة من النهي عن بناء المساجد على القبور هو عدم الوقوع في تعظيم الصالحين، وسد باب الذرائع للغلو فيهم واعتقاد قدرتهم على النفع والضر، مما يتعارض مع التوحيد الخالص لله عز وجل، أو مما يؤثر على صفائه ونقائه.

وبناء على ما تقدم، فإننا ننصح المسلمين بتجنب بناء المساجد على القبور، وعدم دفن الصالحين وغيرهم في المساجد. هذا في رأينا هو النهج الموافق لتوجيهات الكتاب والسنة.

كما أن هذا الرأي عندنا هو الأحوط للمسلم الذي يريد الابتعاد عن الشبهات، عملا بما جاء في الحديث المشهور للنبي -صلى الله عليه وسلم-: «إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع

في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله: ألا وهي القلب". (متفق عليه)

ونذكر إخواننا المسلمين في كل مكان، أنه حتى إذا رأى الواحد منهم أن بناء المساجد على القبور مكروه فقط وليس محرما، نذكرهم أن الله سبحانه وتعالى لا يُتقرب إليه بمكروه، بل الثابت أنه سبحانه وتعالى يثيب من يترك مكروها من أجله.

وجوابا على من يرى في بناء المساجد على قبور الصالحين حفظا لذكراهم، نقول إن هناك بدائل أخرى مشروعة لا شبهة فيها، مثل إقامة المؤسسات الخيرية أو المراكز العلمية بأسماء أولئك الصالحين، وتوظيف تلك المؤسسات والمراكز لنشر العلم وخدمة المجتمع والحفاظ على التراث العلمي للصالحين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقع على البيان:

١ ـ جمعة أمين، عضو مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين في جمهورية مصر العربية.

٢ ـ الشيخ نبيه الإسماعيل شيخ الطريقة القادرية في دمشق.

٣ ـ د. عبد الرحيم ملازاده البلوشي، باحث إيراني متخصص في الدراسات الإسلامية. (من المدرسة السلفية)

٤ ـ د. جلال الدين محمد صالح: أستاذ جامعي من أريتريا، متخصص في الدراسات الإسلامية.

موقف العلامة السيد علي الأمين

لم يوقع العلامة الشيعي المجتهد السيد علي الأمين على البيان الثالث، غير أنه عبر عن موقف قريب جدا من مضمونه، حيث اقترح النص الآتي: «توجه المتحاورون في نهاية «الحوار الصريح بعد التراويح» بالنصيحة الآتية إلى المسلمين، وهي عدم القيام بدفن الأولياء والصالحين وسائر موتى المسلمين في بيوت الله ومساجده، وأن الأولى عدم بناء المساجد على الأضرحة والقبور، والحمد لله رب العالمين».

دعوة للحوار

وإذ أضع هذه الأفكار بين أيدي القراء الكرام في كل أنحاء العالم، فإنني أدعو الجميع للإسهام في إثراء هذه المناقشات وتعميقها وتطويرها، بما يسهم في نشر ثقافة الحوار والتجديد والتسامح في حياتنا المعاصرة، وبما يسهم في عزل ثقافة التعصب والجمود والخرافة.

الدكتور محمد الهاشمي الحامدي

سيرة ذاتية

- ولد الدكتور محمد الهاشمي بن يوسف بن علي الحامدي في محافظة سيدي بوزيد، جنوب القيروان، وسط الجمهورية التونسية.

- نال شهادة الإجازة (الباكالوريوس) في اللغة والآداب العربية من كلية الآداب جامعة تونس عام ١٩٨٥م.

- أكمل دراساته العليا في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية جامعة لندن، ونال منها درجة الماجستير عام ١٩٩٠م متخصصاً في الآداب العربية والتاريخ والدراسات الإسلامية المعاصرة.

- نال درجة الدكتوراه من قسم دراسات الشرق الأوسط في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية جامعة لندن عام ١٩٩٦م متخصصاً في مجال الدراسات الإسلامية المعاصرة.

- عمل في الميدان الإعلامي منذ عام ١٩٨٣م. بدأ مسيرته الإعلامية في صحف (الرأي)، و(المغرب العربي)، و(الصباح) التونسية، ثم انتقل

إلى لندن وأشرف على تحرير صفحة الدين والتراث اليومية في جريدة الشرق الأوسط عدة سنوات.

- أسس في لندن جريدة المستقلة الأسبوعية، في يناير ١٩٩٣م، وأشرف على تحريرها منذ ذلك الوقت عدة سنوات.

- أسس مجلة الديبلوماسي الفصلية للحوار بين الثقافات والحضارات عام ١٩٩٦م، وأصدر منها ستة أعداد باللغتين العربية والإنجليزية، كما نظم باسمها مؤتمر لندن للحوار بين الثقافات والحضارات في يونيو ١٩٩٦م، بمشاركة مفكرين وعلماء بارزين من مختلف أنحاء العالم.

- أسس قناة المستقلة الفضائية في لندن عام ١٩٩٩م.

- أسس قناة الديمقراطية الفضائية في لندن عام ٢٠٠٥م.

- نشر عدة كتب بالعربية والإنجليزية، أحدثها كتاب (السيرة النبوية للقرية العالمية)، وهو قراءة معاصرة في السيرة النبوية، وكتاب آخر مع الدكتور عايض القرني عنوانه (مودة أهل البيت عند أهل السنة).

- شارك في العديد من الندوات الفكرية والمهرجانات الثقافية العربية والعالمية.

- نشر في عام ١٩٩٢م مقالة موسعة دعا فيها الكتاب والمفكرين المسلمين للتوافق على وثيقة حضارية أسماها (الميثاق الإسلامي للعدل والشورى وحقوق الإنسان).

- في العام ٢٠٠٧م أعلن بصفته رئيس قناة المستقلة الفضائية عن تأسيس وتنظيم مسابقة (شاعر العرب)، أول مسابقة لشعراء اللغة العربية الفصحى في تاريخ القنوات الفضائيات العربية، وذلك تكريماً للشعر، وخدمة للغة العربية.

- رعى وشجع العديد من الندوات المتخصصة في الحوار بين الثقافات والحضارات، وقدم برنامجاً خاصاً للحوار بين علماء اليهودية والمسيحية والإسلام عنوانه (آل إبراهيم).